التصوف تمهيد في

التصوف مرتبة عالية وهو إصلاح القلب بالوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا، فهو مبني على الكتاب والسنة وذلك باتباع شرع الله تعالى والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأحوال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأفعال، وتسليم الامور كلها لله من غير إهمال في واجب ولا مقاربة محظور، وحاصله اتصاف بالمحامد وترك للأوصاف الذميمة
فهو مسلك قائم على العلم والعمل، أعلاه علم التوحيد وأداء الواجبات قبل النوافل والتحلي بالأخلاق الحسنة الزهد والخير و عمل البر ثم.
قال الله تعالى : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17) [سورة السجدة])
ويقول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: [فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين التنعم إياك و] رواه الطبراني

وهو حديث حارثة بن مالك أن الرسول عليه السلام الصوفية وقد اشتهر حديث عند لقيه ذات يوم فقال له: [كيف أصبحت يا حارثة] قال أصبحت مؤمنا حقا. فقال له [انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة] قال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري فكأني بعرش ربي بارزا وكأني بأهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني بأهل النار يتعاوون فيها، قال: [عرفتَ فالزمْ، عبدٌ نوَّر اللهُ الإيمانَ في قلبه] أخرجه الطبراني.

وهذا الحديث متداول بين الصوفية، وإن كان هذا الحديث ضعيفا ضعْفا خفيفا فقد ذُكر في فضائل الأعمال، ويُعمل به كما ذكر السيوطي في تدريب الراوي وغيرُه.

فهذا هو مشرب القوم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في حاله وخُلُقِهِ، وكان عليه الصلاة والسلام خلقُه القرآن، وكان أكثر الناس تواضعا وزهدا، وكان أعفَّ الناس، مَنْ صحِبه أحبه لما يشاهده من محاسن أخلاقه ومزيد شفقته وتواضعه وباهر عُظم تألفه وأخذه بالقلوب.

وكان صلى الله عليه وسلم يمشي مع المسكين والأرملة إذا أتياه في حاجة ما، يفعل ذلك من غير أنفة. وكان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه ولا يعيبه ذلك، ويكون في مهنة أهله، وكان يردف خلفه عبده أو خادمه أو قريبه يفعل ذلك على دابته، وكان يجالس الفقراء والمساكين والعبيد والإماءَ ويعُودهم ويزورهم، ويتفقد حالهم، ويشهد جنائزهم، وما سُئل عليه الصلاة والسلام شيئا من متاع الدنيا يُباح إعطاؤه فقال لا، وكان يجلس في الأكل مع الفقراء والمساكين، وكان لا يعيب طعاما قطُّ بل إن أحبَّه أكله وإن كرهَه تركَه، وكان يلبس من الثياب ما وجده من إزار وقميص وجبة صوف، وربما يلبس الإزار وحده ليس عليه غيره، وربما كان عليه مِرط [(1)] من صوف أو خز، ففي سنن أبي داود: [خرج علينا رسول الله وعليه مِرط مرحل [(2)] من شعر أسود]. وربما صلى بثوب واحد ملتحفا به بغير زائد عليه، وكان لا يسيل القميص ولا الإزار أي لا يرسلهما إلى الأرض بل يجعل الإزار والقميص فوق كعبيه، بل ربما كان إزاره وقميصه لنصف الساق، يفعل ذلك تواضعا، وربما نام على العباءة يثنيها ثنيتين، وربما نام على الحصير ويؤثّر الحصير في جنبه الشريف، فقد اخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى الله عليه وسلم وهو راقد على حصير من جريد وقد أثر في جنبه، فبكى قال: ذكرتُ كسرى وملكه، وهرمز وملكه، وصاحب [ما يبكيك؟] :عمر فقال له الحبشة وملكه، وأنت رسول الله صلى الله عليك وسلم على حصير من جريد، فقال له فهذا رسول .[أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة] :رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا الراغب في الآخرة، والوارد عنه عليه الزاهد الله صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك] :الصلاة والسلام في ذلك كثير. وقد قال عليه الصلاة والسلام ما لي وللدنيا، وما للدنيا وما لي، ما أنا إلا كراكب] :وقال ،[غريب أو عابر سبيل فعلى هذا كان سيدنا وقدوتنا رسول الله .[استظل تحت ظل شجرة، ثم راح وتركها صلى الله عليه وسلم.

عليه عيسى ومثله ورد عن أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام. فقد ورد عن نبي الله السلام فيما رواه الحسن البصري قال: [كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر](3)[ويأكل الشجر، ويبيت حيث أمسى]. وكان سيدنا عيسى عليه السلام يبيت حيث أمسى في مسجد أو غير مسجد، ما اتخذ بيتا، وكان يأكل ما يُتقوَّت به من بقول الأرض كالملوخية والهندباء والخبيزة نيئة من غير طبيخ. هكذا أنبياء الله عليهم السلام زهَّاد

عُبَّاد عارفون طالبون للآخرة، وكذلك نبي الله سليمان عليه السلام معَ ما أعطاه الله من السلطان والجاه وخدمة الجن له كان ياكل خبز الشعير.

على هذا كان أنبياء الله عليهم السلام وعلى هذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أدَّب المتقين، وعلَّم الزاهدين، ووطّد الدين، ونُصر بالرعب مسيرة شهر، وضجت الأكوان باسمه، ورجفت فرائص ملوك الأرض لذكره في كل زمان ومكان، وقد مات عليه الصلاة والسلام ولم يشبع من خبز الشعير، مع أنه أعطى ما بين لابتيها [(4)] غنما، وملأ رداء عمه العباس ذهبا، وأعطى عطاءَ من لا يخشى الفقر، فالله أكرم أنبياءه، واصطفاهم لمقام النبوة، وخصهم بما لم يخص به أحدا من البشر، وأغناهم عن الناس، فسلموا لله تسليما كاملا، واستغنوا بالله، وأيقنوا أنه المالك الكريم الرازق الخالق المدبر لمخلوقاته في كل حين، فأنفقوا ولم يقتروا، وأيقنوا أن كُـلاًّ من عنده، وبهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أَوَليس قال عليه الصلاة والسلام لبلال: [أنفق بلال ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا] رواه الطبراني وأبو نعيم.

رضي الله عنه هذا المشرب، وردَّ أهل الردة على أعقابهم، أبو بكر الصديق وتبع ونام على قطيفة لم يكن عنده في البيت سواها، ثم أمر بها فأعيدت إلى بيت المال. رضي الله عنه فتح الأقطار، ومصَّر الأمصار، وعزّ به الدين عمر وكذلك الفاروق واستنار، وخطب عام وفاته وعليه ثوب فيه أربعون رقعة.

وهذا ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد رُوِيَ أنه رُؤي يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة وأثر الحصى في جنبه، وكذلك أبو الحسنين علي الأكرم عليه السلام وهو الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما على التراب مرة فسماه أبا تراب، وكان كرم الله وجهه يلبس إزارا مرفوعا ويقول: "يُخشّع القلب، ويقتدي به المؤمن".
وتبعهم على ذلك أهل الولاية والإرشاد من التابعين الأمجاد، فكان لهم من نورهم قبس، ومن حال نبيهم صلى الله عليه وسلم نفس، ودلوا المسلمين على المنهج القويم، والصراط المستقيم، وعلى مشرب نبيهم وجليل حاله، وغيرهم كثير ولو أردنا ذكرهم لطال.
وقد قال الحسن البصري: أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم إلا الصوف.

وكلهم من رسول الله ملتمسُ ... غرفًا من البحر أو رشفا من الديَمِ

يقول العارف بالله الزاهد العلامة الشيخ عبدالله الهرري ناصحا مريديه: "إياكم والغفلة بالتنعم وتعلق الهمم بتكثير الأموال". والتنعم هو التوسع في الملذات من المطعومات والمشروبات ومن الملبس الفاخر، وتركُ التنعم هو سنة الأنبياء.

كان في الصدر الأول من عصر الصحابة، فالخلفاء التصوف الحقيقي واعلم أن معنى الأربعة كانوا صوفيين معنى، واعلم أن صاحب كتاب حلية الأولياء الحافظ أبو نعيم أحد مشاهير المحدثين بدأ كتابه الحلية بصوفية الصحابة، ثم أتبعهم بصوفية التابعين، وهكذا. فإذا رمتَ معرفة حقيقة القوم والتيقن من صدق حالهم وصفاء مشربهم، فهاك ما ذكرناه لك، فتأمل.